التمرد الاجتماعي في شعر أحمد دليل

د. مولاي أمحمد بن عمر
جامعة أحمد دراية أدرار– الجزائر

تاريخ الارسال: 30-03-2020 تاريخ القبول:01-04-2020 تاريخ النشر: 30-06-2020

الملخص:

عرفت الأمة العربية مع بداية السبعينات من القرن الماضي تحديات جسام، فرضها واقع مأسوي ممزق، توالت فيه الهزائم والخيبات ... التي عصفت بمختلف الأقطار العربية، حيث حاول الشاعر العربي – وهو يعيش قمة انكساره – أن ينقب عن أسباب الهزيمة، والخيبة، من خلال الكشف عن القيم والعادات الزائفة والمشجعة للاستسلام، فوجه لها سهام نقده، إذ اعتبرها عاملا أساسيا من عوامل الخيبة.

لذا فقد أردت من خلال هذه الدراسة مقاربة هذه الظاهرة في الشعر الجزائري المعاصر، من خلال ديوان " رجل من أرض الحلاج لأحمد دليل"، وهذا بالإجابة على مجموعة من الأسئلة المتعلقة، بأسباب تمرد الشاعر على مجتمعه، والجوانب الاجتماعية التي انتقدها، ومدى نجاحه في تجسيد رؤيته فنيا وجماليا.

الكلمات المفتاحية: التمرد، الشعر، المجتمع، الهزائم.

Abstract:

The Arab nation, at the beginning of the seventies of the last century, had faced great challenges, imposed by a tragic reality, torn by defeats and disappointments. Revealing values and habits full of surrender, he drew the arrows of criticism, considering it to be a key factor of disappointment.

Therefore, through this study, I wanted to approach this phenomenon in contemporary Algerian poetry, through the "Man from the Land of El-Hallaj to Ahmed Dalil", by answering a set of questions related to the causes of the poet's rebellion against his society and the social aspects he criticized, And the extent of his success in the embodiment of his vision technically and aesthetically.

Keywords: rebellion, poetry, society, defeats

المقدمة:

عرفت الأمة العربية مع بداية السبعينات من القرن الماضي تحديات جسام وتحولات عظام، خلفها وفرضها واقع مأسوي ممزق، توالت فيه الهزات وتكررت فيه الخيبات والهزائم ... التي عصفت ولازالت تعصف تواليا بمختلف الأقطار العربية والإسلامية، حيث راح الشاعر العربي – وهو يعيش ذروة انكساره وانحصاره– ينبش عن أسباب الهزيمة، ويفتش عن عوامل الخيبة، ويفضح السياسات الفاشلة، ويكشف القيم والعادات الزائفة؛ التي تشجع وتمتدح الخنوع والاستسلام، ويتمرد ويثور في وجه البيئة والسلطة الحاضنة لكل ذلك، موجها بذلك سيلا من الغضب والنقد لبعض التقاليد والأعراف، التي اعتبرها– الشاعر– عاملا أساسيا من عوامل الهزيمة، لأنها كانت بمثابة التربة الخصبة التي نمت فيها وترعرعت مختلق قيم الهزيمة؛ من تسلط واستبداد وخمول واستسلام...، وقد حاول – الشاعر– من خلال نقده هذا ايقاظ الضمائر الغافلة وارشاد النفوس المذهولة والحائرة للأخذ بأسباب النجاح ولتوسل سبيل النصر، من خلال الحث على التمرد والثورة والالحاح على التسلح بالأمل والارادة والعزيمة لتحقيق النصر. والشاعر أحمد دليل حاول من خلال ديوانه " رجل من أرض الحلاج" التعرض لهذه القيم الجامدة والتقاليد المتصلبة، وفضحها والتشهير بالبيئات الحاضنة لها، لأنها حسبه سبب الخمول والجمود الذي يطبع تفكيرنا، والاستسلام والخنوع والهزيمة التي تخيم على واقعنا، وهو في ذلك كله يحاول بوعي استنهاض الهمم تارة، والتحذير تارة أخرى، والتحريض على الثورة على العادات البالية ثالثة، ... يحركه في ذلك ويدفعه شعوره بالمأساة التي يعيشها مجتمعه العربي.

1- التمرد على أقوال وثقافة الخضوع:

من العادات والقيم السلبية التي وجه الشاعر إليها معول هدمه هي أقوال الخضوع والاستسلام المنتشرة كثيرا بين أوساط طبقة العامة، تغذيها ثقافات انهزامية وأعراف فاسدة، وجدت في هذه الطبقة المتخلفة التربة الخصبة، فنمت وتجذرت وتمكنت، وانتقلت مع الزمن وتشجيع بعض القوى الفاعلة – سياسية، دينية– للتغلغل في الاذهان والترسخ في القناعات، وهذا ما يبرر انتشار واشتهار العديد من الأقوال التي تشجع على الاستسلام وتحض على عدم الخروج والثورة، ومنها مثلا ما ذكره "أحمد بن عبد ربه في العقد الفريد أن (الحاكم سلطان والسلطان هو حمى الله في بلاده وظله المحدود على عباده) وأنه (إذا كان الإمام عادلا فله الأجر وعليك الشكر، وإذا كان الإمام جائرا فله الوزر وعليك الصبر) وأن (طاعة الأئمة من طاعة الله وعصيانهم من عصيان الله) وأن الحاكم (هو الراعي والشعب هو الرعية وأن إمام

عادل خير من مطر وابل وإمام غشوم خير من فتنة تدوم"1. فهذه الأقوال وأمثالها كثير، انتشرت انتشار النار في الهشيم وسط فئات المجتمع، فقضت على كل قناعة بضرورة الإصلاح فيه، وعصفت بكل ايمان بحتمية التغيير والثورة، ونفثت روحها الانهزامية داخل كل ألوان الثقافة – دينية، أدبية، شعبية – وهذا الوضع هو ما شجع العديد من الأدباء والشعراء العرب – انطلاقا من ايمانهم بالحرية وضرورة التغيير – لمواجهته ومحاولة زحزحة وخلخلة أسسه غير ابهين بقوة السلطة التي ترعاه وتحضنه، لأنه "لا يجوز أن ترهبهم سلطة المجتمع أو تثنيهم رواسب التربة القائمة على مبدأ (سلم تسلم) عن عزمهم في التغيير، والتجديد والتطلع نحو نور الحرية، بل والصراع من أجل انتزاع ذلك النور حتى لو كان صراعا ضد الآباء انفسهم ، أما أن يستسلم الأديب للأمر الواقع، ويختار السلامة والأمان من الأيدي والألسنة، فإنه لن يجد من يتبرع عليه بالحرية"2. ولذا فإن أحمد دليل من خلال قصيدته " حيدر بيدر" يوجه سهام تمرده هذه المرة باتجاه هذه الثقافة السلبية، يقول في مطلعها:

تتشرنق الكلمات في أذني،
ويصعقني غناء الصبية المملوء
بالضحكات والأصوات.
فأعود أدراجي لأسمع من جديد
وهناك غير بعيد...
لا يأبهون لمقدمي،
بل يلعبون ويرددون:
" يا عمي حيدر بيدر،
باغي نعشي ضيفاني
ضيفاني عند السلطان
والسلطان خلا الأوطان"
يتيبس المعنى ويطرق مسمعي طرق
الإبر. هل يفهمون لقولهم مغزى؟ أم يا
تراها أحجية! فالأحجيات كثيرة في
موطن حيث الهواء، محبة السلطان!3

إنها ثقافة الذل والخضوع التي جعلت الشاعر يغضب ويثور في وجه مجتمع؛ يحتضنها ويشجعها عبر مختلف ألوان ثقافته، ويلقنها للأطفال الصغار – حتى وهم يلعبون– تحت مسميات مزيفة وعناوين شكلية خادعة، كاللباقة، الاحترام، الرزانة ...، لكي يغتالوا فيهم كل حب للإبداع، والتغيير...، وهذا ما يؤكد أن هذا المجتمع " مجتمع سلطوي مؤدلج يقتل في الفرد روح المبادرة والانفعال، ويعزز روح الخنوع والاستسلام، ويؤطر كل ذلك بقيم شكلية فكرية، قيم الطاعة والاحترام والرزانة وعدم التهور..."4. إنه الاغتيال الممنهج لأخلاق الفطرة الإنسانية السليمة؛ التي ترفض الخنوع للظلم، وهو كذلك استغلال لبراءة الأطفال وسلامة فطرتهم من أجل تغذيتهم بأغذية حريفة، وتوجيههم نحو ثقافة التسليم وأخلاق الطاعة العمياء والتزلف والتذلل، فيكبر الطفل ضعيفا مقهورا محتقرا مسلما وراضيا بوضعه المأزوم، لا يفكر ولا يأمل حتى في تغييره، لأن "بعض ألوان المعرفة يترك في النفوس من التطير والخمول مثلما تتركه هذه الأغذية الرديئة في الاجسام!!... والمجتمع الاسلامي من أزمنة متطاولة ضللته أحكام خاطئة، واستولت عليه صور ذهنية وقلبية ما أنزل الله بها من سلطان، فكم من أشياء درست على أنها دين، فإذا محصتها وجدت أنها هراء، أو وجدتها اجتهادا محدودا لأحد الباحثين ليست له قداسة الدين، ولا حرمة الخروج عليه"5.

إن مثل هذه الثقافات وهذه الأفكار الانهزامية، هي ما يشجع على ظهور الانظمة الاستبدادية والقهرية، ويوفر لها التربة الخصبة للاستمرار والانتشار، فتختل بذلك الموازين في المجتمع؛ خصوصا ما تعلق منها بالعلاقة بين الحاكم والانسان المقهور، بحيث " يصل هذا الاختلال حدا تتحول معه العلاقة إلى فقدان الانسان لإنسانيته، وانعدام الاعتراف بها وبقيمتها. وتنعدم علاقة التكافؤ لتقوم مكانها علاقة التشيؤ، بدل أنا –انت ... تقوم علاقة أنا، ذاك–ذاك هو الشيء هو الكائن لا اعتراف به، بإنسانيته وقيمتها، أو بحياته وقدسيتها. باعتباره شيئا يصبح كل ما يتعلق به أو ما يمت إليه مباحا (غبن اعتداء تسلط، استغلال، قتل ... الخ)، ذلك هو الانسان المقهور، انسان العالم المتخلف"6. ومن هنا فإن الشاعر كان يرمي من خلال قصيدته إلى خلخلة هذه القناعات المتكلسة، ومحاربة هذه المفاهيم والأفكار الفاسدة، يقول في بقية أبيات القصيدة:

"... يا عمي حيدر بيدر،

جابني جوعي نتجرجر

ما خلاليش الفلته

حالي من حال الموتى"

عن أي حيدر ينشدون؟ ما من ولي اسمه

حيدر، ما من ولي صالح أو طالح

يستنصرون به على السلطان! من ذا

يلقنهم كلام الصمت؟ آبائهم لا ينطقون،

والأمهات مكممات... من ذا إذن ألقى بروع

الصبية المغنى؟ فحل يهاب الصولجان! أم

فحلة أم جان...

اليوم موعد جمل أمتعتي لأرحل من هنا...

هاذي بلاد لن تتوب عن الخنوع ولن تثور!7.

لقد أدرك الشاعر خطر ترديد الأطفال لهذه الأغنية التي رمز بها لفكر الجمود وثقافة الركوع والانحناء، كيف لا وهي تمتدح الظلم والاستبداد وتكرس حياة الذل والخنوع، بل وتجعل من صفات الخنوع متواترة ومتوارثة جيل عن جيل؛ حتى أصبح الخنوع عقيدة ودينا في المجتمع، بحيث أنتفى كل معنى للثورة وزال من ثقافة الأمة، وهنا يكمن الخطر وتتجلى الهزيمة، لأن الهزيمة "هي أن تعيش في دوامة من الأخطاء والعثرات الدائمة المستمرة... الهزيمة أن تشعر بأن ظهرك قد قصم، وفؤادك فجع، وعقلك لم يعد قادرا على تقديم العون"8. فالهزيمة الحقيقية هي معنى يتجلى في النفس وقناعة تترسخ في العقل، تحمل الجمهور على التسليم والخضوع، وتقنعه بضعفه وعدم قدرته على المواجهة والثورة، "فتبدو وكأن الاستكانة والمهانة هي الطبيعة الازلية لهذه الجماهير، وهذا ما تحاول قوى التسلط على كل حال غرسه في نفسيتها، في حملة تئيسية منظمة تقطع السبيل أمام أي انتفاضة أو أمل في انتفاضة"9.

إن مثل هذه المجتمعات المروضة المسلوبة الإرادة والقدرة على الاختيار، الاسيرة أفكار وتقاليد الخضوع والتذلل، لا مكان فيها للمثقف الواعي، ولا موضع قدم بها للشاعر المتمرد الثائر، مالم تدك الحصون الحامية لهذه الثقافات والعادات، وهذا ما يجعل الشاعر يعيش فيها غربة على كافة الأصعدة فكرية، ثقافية، اجتماعية ... وهو ما قصده الشاعر بقوله (اليوم موعد حمل أمتعتي لأرحل من هنا ...).

إن الشاعر يعي خطر تلك الأفكار والعقائد والأقوال الخاطئة التي تعشعش في المجتمعات المتخلفة، وتجد طريقها للنشر والاشتهار في أوساط العامة حيث الجهل والجمود

... ولعل أكثر فئة تقع ضحية وفريسة سهلة لهذه التفاهات والخرفات، هي فئة الطفولة البريئة التي يتم اغتيال براءتها، وتشويه فطرتها السليمة من خلال تلقينها تلك الأعراف والأقوال الفاسدة تارة، وتعليمها ثقافة الصمت والخضوع تارة ثانية، وكبح غريزة السؤال والفضول-التي تدفع الطفل للتساؤل ومحاولة اكتشاف حقيقة الوجود، حقيقة الموت والحياة، يقول في قصيدة "طيف سؤال":

أبتي أحقا صرت طيفا من خيال؟
أبت أجنبني... أين أنت؟
قالوا خرجت... وبحثت عنك فلم أجد
بالباب آثار النعال!
قد كنت بين يديك قبل قليل،
أحبو، تقبلني كأنك في صلاة!...10.

يتساءل الشاعر على لسان هذا الطفل - في براءة الأطفال وفضولهم- عن حقيقة غياب أبيه ورحيله من دون وداع، فرغم طمأنة الاهل ورغم تأكيدهم بأن الأب قد خرج وسافر فقط... لكن الطفل ظل حائرا وقلقا، لغرابة هذا السفر، ولهذا الخروج الذي ليس ككل خروج؛ لأنه لم يترك بالباب أثرا (فلم أجد بالباب آثار النعال!)، إن هذه الأسئلة التي تبدو في ظاهرها بريئة وساذجة هي في الحقيقة تجسد لب وحقيقة صراع الانسان وتطلعه الدائم لمعرفة حقيقة الوجود وحقيقة الموت والحياة،... ولأن الخمول والجمود والاستسلام والعيش على الخرافة هي صفات تواضع عليها عامة أفراد هذا المجتمع، فهم أبدا يهربون من الحقيقة وينفرون من كثرة الأسئلة ويخافون الفضولي بينهم؛ حتى ولو كان طفلا صغيرا، يقول الشاعر في بقية الابيات:

أمي تقول بأن رحلتك الطويلة نحو
أرض،
لست أذكر اسمها،
قد تقتضي زمنا طويلا...
هل صرت تعمل ها هناك؟
فتشت عن هندامك الأزرق،
فوجدته! ... بقع من الاسمنت، كالمعتاد
تملاه!

وسألت أمي، كيف راح أبي ليعمل؟!

ها هنا هندامه الأزرق!

لم تجنبي، واختفى الهندام.

ومضى عام فعام...

لم يعد أبتي ولكن ... اختفى الطفل

الصغير! 11.

إن الام في هذه القصيدة رمز لثقافة الجمود، ورمز للمجتمع الخامل المستسلم المطمئن لحالته وسكونه، الذي يرفض التجديد والتغيير والتحول، ويعشق الثبات والجمود، لذا فهي تحاول جاهدة إرضاء فضول طفلها بأجوبة وبأوهام وتبريرات واهية، لا ترضي حتى عقل هذا الطفل الصغير، الذي راح يفتش ويبحث في كل زوايا البيت عله يعثر على إجابة مقنعة، لكن بحثه لم يزده إلا حيرة وقلقا؛ بسبب اختلاف وغرابة هذا السفر والغياب المزعوم لأبيه عن غياباته السابقة، وهي حيرة تجلت بوضوح في تلك الأسئلة الكثيرة التي جاءت على لسان الطفل، إن أفراد المجتمع من العامة بدو صغارا وعاجزين أمام فضول هذا الطفل واسئلته الجريئة؛ التي احرجتهم وفضحت زيف ادعاءاتهم، إن القصيدة محاولة من الشاعر للنبش عن ذلك الطفل الذي قبرناه فينا، إنها محاولة للحفر عن تلك الأسئلة التي رميناها في حفر ماضينا؛ ولازالت من حينا لآخر تحاول الظهور والبروز كلما مررنا بصدمة أو أزمة؛ زحزحت يقيننا وثقتنا في كيفية تعاطينا مع معطيات الواقع، لكننا نرجئها ونمهلها من دون أن نجد لها إجابات ترضي – أو حتى نحاول– العقل والمنطق سوى بقايا خرافات وتعليلات نظل متمسكين بها.

ومن هنا فالقصيدة تمرد صريح ونقد لاذع لكل مجتمع ولكل ثقافة تسيطر عليها الخرافة والأعراف والتقاليد الجامدة، وأن حالة الجمود التي تطغى على تفكير بعضنا، وحب الكسل والخمول والميل للسكون والمهادنة التي تميز طبع ثلة منا، هي مخلفات ورواسب لهذه الثقافة.

إن تمرد الشاعر وثورته تصبح مفهومة ومبررة إذا ما ادركنا أن صورة الطفل الصغير الحائر المتسائل في القصيدة، ما هي إلا تمثيل وتجسيد لكل جديد في الحياة يبدأ صغيرا ضعيفا باحثا عن حقيقة أو أرض مهيأة لاستقباله، فإن وجد ها كبر واشتد عوده وإلا قبر في مهده، وهذا ما يبرر خلو حياتنا من كل جديد ومبتكر، وفشل كل المحاولات السابقة للتجديد والتطور، لأننا نغتالها في مهدها، وهذا ما يعني أن أسئلة ذلك الطفل الحائر هي في الحقيقة

دليل على أن كل ثورة وكل حركة تغيير وتجديد هي ابدا محملة بمجموعة من الأسئلة الباحثة عن إجابات لها في أرض الواقع، وهو ما يفرز حالة من القلق والحيرة التي تكون بمثابة الوقود الذي يدفع هذه الحركة إلى مزيد من البحث والتحول، فإذا ما قدمت هذه الحركة الإجابات لتساؤلاتها تكون بذلك قضت على حالة الحيرة والقلق، مما يعني أنها أعلنت عن وفاتها وانتقالها من حركة تجديدية متحركة إلى حالة من السكون والى جمود قار، ومن هذا المنطلق فالقصيدة تحريض على الثورة ودعوة للتجديد والتغيير من خلال بعث ذلك الطفل الحائر المتسائل فينا الذي يمثل بذرة التجديد الأولى ، وأن كل محاولة لقتل فضوله أو خنق أسئلته أو ارجائها؛ هو في الحقيقة محاولة لقبر الثورة والتجديد ودعوة للسكون والخمول .

2- التمرد على العادات والأعراف:

إن هذا التغيير الذي ينشده الشاعر في الحياة والواقع يمر حتما عبر زحزحة عديد القيم السلبية والأعراف الخاطئة التي يرزح تحت وطأتها سواد المجتمع، من هنا يأتي تمرده ورفضه واعتراضه عليها، بحجة أنها أثقلت كاهل المجتمع وجعلته يقبع زمنا طويلا تحت خط التخلف والجهل والقهر والسذاجة والجمود، وهذا ما يؤكده ارتقاء بعض المعتقدات والأعراف والطقوس الفاسدة لمرتبة الدين واكتسابها بفعل الجهل صفة القداسة، ومن هذه الأعراف تعاطي السحر والشعوذة والتداوي بهما والايمان بدورهما في دفع شرور بعض القوى الخفية كالجن مثلا، ففي الجزائر العميقة "تجد الكثير من هذه الطقوس التي تعكس هذا الايمان بهذه القوى الخفية ... ومن هذه القوى الخفية والتي يخشاها سكان الصحراء الجزائرية، قوى الجن، إذ لا يوجد في كل افريقيا فرد مستنير أو جاهل، متعلم أو أمي لا يرد إلى الجن كل غريب يحدث فوق الأرض"12.

وهي حقيقة مفزعة تصور مدى انتشار وتمكن هذه القناعات والأفكار وتغلغلها في نفوس وعقول معتقديها، كما أن خطرها الأكبر يتجلى في كونها تجذرت حتى في عقول بعض الفئات المثقفة، مما يؤكد على أن عديد ألوان المعرفة والثقافة المتاحة في هذه المجتمعات تشجع على التخلف والتحجر من خلال تعايشها مع مثل هذه الطقوس والأعراف الفاسدة، فوكور السحر وكهوف الشعوذة والدجل انتشرت في عديد الأقطار، ووفود الزائرين إليها تكاد لا تنقطع ؛ بين مسؤول يرغب في الحفاظ على كرسيه وطالب يبتغي نيل شهادته، وزوجة تريد اخضاع زوجها، ومحسود يتمنى رفع الحسد عنه، ... تعددت مراتبهم واختلفت انتماءاتهم ،

والهدف واحد تحقيق أمنية أو إصابة مبتغى، وكل يجتهد في تقديم الأموال والقرابين التي يشترطها المشعوذ ويحددها الدجال، بلغت في غرابتها ما بلغت، إنها مأساة مجتمع متخلف ما يزال يؤمن بالخرافة ويستعين بالدجل ويؤمن بالشعوذة في دفع الشرور وتحدي قوانين الكون، ومن هذا المنطلق يأتي تمرد الشاعر أحمد دليل ورفضه لهذه القيم والقناعات، وسعيه لكشف زيفها وبطلانها، يقول في قصيدة "بونيات":

تدور كالمجنون،
تقول أن الكاف سر النون
وأنها مكنونة في الذات... في الأشياء،
وأنها من خولتك العيش في طاقية الاخفاء
تردد "الطاهطيل" التي تسخر الرياح
تسألها إن الوحا،
تسألها إن العجل،
تسألها الساعة، بعدما توقف الصباح!13.

فمثل هذه الظواهر والأعراف السلبية، والتي تطغى على يومياتنا، وكانت وراء استفحال وانتشار عديد العلل والآفات الاجتماعية، التي ذهبت بحيوية الحياة وحركتها، واعاقت كل تجديد فيها، هي ما شجع الشاعر على التصدي لها واعلان تمرده ورفضه، لذا وجدناه هنا يحاول فضح هذه الأفعال المشينة، القائمة على الكذب والاحتيال والمكر والخداع، وكشف زيفها وضلال أصحابها، من خلال تصويره لتصرفات وأقوال هذا الساحر المحتال، الذي يوهم ضحيته ويخدعه من خلال ترديده لكلمات غير مفهومة (الطاهطيل، الوحا ...) يدعى بأنها ستجعل جميع قوى الكون الخفية رهن اشارته، وكل الاحداث والوقائع أسيرة كلماته، مستغلا سذاجة بعض أفراد المجتمع وجهلهم.

إن الشاعر وهو يتعرض لهذه الأعراف والتقاليد والافعال، ويفضح زيفها وفسادها، يرمي إلى ضرب قناعات الناس وايمانهم بها من خلال بث الشكوك في نفوس المؤمنين بها وزحزحة ثقتهم وهذا ما يتضح أكثر في بقية الأبيات حيث يقول:

تدور وسط زحمة القبور،
تخط في كفيك طلسم العزيمة
وترسل البخور

فتبعث الهزيمة!
تقلب التراب في كفيك، في الأقفال، في الأبواب
وتسأل التتليه عن طوران،
وحولك المكان،
يعج بالدخان،
يعج بالسراب...14

إن الشاعر من خلال تصويره للساحر وهو يقوم بطقوس الشعوذة والسحر، حرص على ابراز ما يستخدمه من حيل وخدع -حركات وأصوات وأسماء وبخور....- للإيقاع بالضحية وسلبه أمواله، وإيهامه بأن أمنياته محققة وطلباته مستجابة وعلله مشفية، والحقيقة التي أكدها الشاعر هي أن الضحية لا يحصد في النهاية سوى الهزيمة والخيبة والانكسار، فالبخور يتحول لمجرد دخان يلوث المكان، وما كان يعتقده الضحية حقيقة ما هو الا سراب وكذب؛ وفوق ذلك خرج بجيوب فارغة، (فتبعث الهزيمة، يعج بالدخان، يعج بالسراب) إنها قمة الاحتيال والخديعة والنصب، وقمة الغفلة والجهل والسذاجة والانحراف الديني، وأعلى درجة الاستخفاف بعقل الانسان والاستهانة بقدراته المختلفة.

إنها معاناة مجتمع عبر عقود من الزمن – بمباركة وتشجيع مختلف القوى الفاعلة فيه- إين سعت السلطات الاستعمارية وشجعت على الانحراف الديني حتى تتمكن من زرع بذور عاداتها وتقاليدها الفاسدة والمضللة، لإضعاف الدين الإسلامي، وتشويهه صورته " ففتحت المجال أمام الطرقية والشعوذة والدجل مستغلة فساد ضمائر بعض الائمة الذين كانوا يتاجرون باسم الدين جريا وراء كسب المال بطرق غير مشروعة مهملين دورهم في التوعية والهداية"15. ورغم هزيمة المستعمر ميدانيا وخروجه من أرض الوطن منذ عقود من الزمن، إلا أنه نجح إلى حد بعيد في إبقاء بعض أطياف المجتمع تابعة له ثقافيا وفكريا وخاضعة لإرادته، من خلال رهانه المتعلق بإضعاف روح الإسلام وتشويهه؛ بنشر مثل هذه الأعراف والعادات والممارسات المشينة والفاسدة، ونسبها للدين، وهي الممارسات والطقوس التي كثيرا ما أصبحت تمارس جهارا نهارا، وفي عديد الاوكار، وهذا ما يبرر هذا الغضب الشعري والتمرد لدى الشاعر؛ الذي صلب به مختلف أشكال السلطة الراعية لهذه الطقوس والعادات، وفضح خيانتها وكشف تآمرها ضد مقدسات الامة، عبر أكثر من قصيدة في ديوانه.

3- التمرد على الخيانة والغدر:

إن الشاعر أحمد دليل لم يتمرد من أجل التمرد ولم يخرج عن الطاعة والمهادنة ويعلن رفضه وانتقاده لعديد القيم والأعراف الاجتماعية، إلا حبا في هذا الوطن وعشقا لهذه الامة واملا في انارة طريقها وتبصيرها بأخطائها والاخذ بيدها للخروج من أزمتها، وأكبر دليل على ذلك هو أن تمرده لم يكن إلا على نواحي الجمود والخمول، ولم ينتقد فيه ويفضح سوى القوى والاطراف المتآمرة الخائنة، أما الأطراف والرجال المخلصين – الذين ضحوا بالنفس والنفيس في سبيل انقاذ الوطن والمحافظة عليه– فقد شد من أزرهم ورفع من معنوياتهم، وأشاد بوطنيتهم وكفاحهم، حيث تأتي قصيدة "ما كان يرهبني الوعيد" لتمتدح صمودهم وتحديهم للصعاب، يقول فيها متقمصا شخصية بطل من هؤلاء الابطال:

وطن يذوب،
لا تسأليني أين نحن!
وزوارق غرقى يؤرقها الهروب،
لا تسأليني إين هم!
وزوارق فوق الزوارق تحترق،
ماء الصنابر صار دم
وعلى المدائن غصة،
لا تطلبي مني الرحيل كمن رحل
وعلى المسالك والدروب
ما عدت أدرك ما حصل16.

إنها صورة حية من صور السنوات السود التي كادت تأتي على كل جميل وأوشكت أن تعصف بكل ما ينبض بالحياة في المجتمع؛ لولا بقية باقية من رجال ونساء مخلصين رخصوا في سبيله– الوطن– كل غال ونفيس، فصور أبشع أنوع القتل والجثث الممزقة المرمية على قارعة الطريق والدماء التي نافست في سيلانها مياه الأنهار... تعدّ صور ومظاهر يومية عاشها المواطن في وقت ما، دون أن يعرف لاستباحة دمه أو للتعدي على حرمته ودوس كرامته سببا أو يجد له علة، وهو وضع دفع العديد من أبناء هذا الوطن لمغادرته، تحت صوت التهديد والخوف من القتل، وبحثا عن الأمن والأمان والحياة الكريمة، لكن هناك فئة قد تشربت حب الوطن حتى النخاع لم يرهبها هذا التهديد ولم يزدها الا إيمانا وإصرارا على مواصلة الكفاح والتصدي لكل ما يهدد أمن وسلامة هذا الوطن كائنا ما كان، ومن هنا فالشاعر وهو يصف

لنا الخراب والدمار الذي لحق الوطن، يشيد في الوقت نفسه بتحدي هذه الفئة وبإصرارها وشدة حبها للوطن، حب دفعها للصمود حتى في أحلك الظروف وأشد الأوقات، حب جسده الشاعر من خلال حوار هذا العجوز الوطني مع نفسه –بعدما تجسدت له في صورة امرأة – التي أصرت عليه وترجته أن يرحل كغيره ممن رحل وينجو بنفسه، لكن حبه لهذا الوطن فوق كل شيء؛ حتى نفسه التي يفضل أن يضحي بها رخيصة في سبيل الحفاظ على وطنه، يقول في بقية الأبيات:

وطن يذوب...
وأنا هنا لحن البكاء بجثتي يلد الغروب
ماذا أقول لك وقد صدأ الكلام
ملئت أكف البؤس كأسك فاشربي
ألم الرحيل وغادري بحثا عن النسيان
أما أنا فهنا فقدت أحبتي
وأضعت وجه مدينتي
فالأبرياء يذبحون على الرصيف،
وحدائق الموتى معلقة بساحات الشهيد
ويد الوليد على الطريق تآكلت مثل
الأنين...
هيا! ارحلي ودعي العجوز لبندقيته التي
لا زال في الأوراس رجع عجيجها بين
الجبال
هيا! ارحلي بدموعك وقائب الخوف
الشريد
ودعي عجوزك يلتقي زمن الخوارج من جديد
أنا لم أدس وجه المنية يافعا حتى
يرحلني على الكبر الوعيد!17

إنه الإخلاص وحب الوطن، يدفع بصاحبه إلى تحمل الشدائد والآلام، وتحدي الصعاب، فرغم أن الموت يخيم على كل شبر من هذا الوطن، وصور الذبح والقتل والتنكيل

تملأ الفضاء، ورغم أن هذا العجوز الوطني قد فقد الصاحب والقريب في هذه المأساة ورغم.... إلا أنه لا زال متمسكا بالحياة والبقاء، صاما أذنه عن كل صوت يضج هنا وهناك يطالبه بالرحيل والنجاة، ولا يستمع إلا لصوت قلبه الذي يحثه على البقاء، ولا يصغي إلا لأنين وطنه وحبيبه الذي يستغيثه ويستنصره على أعدائه، لذا فهو لا يخشى التهديد ولا الموت التي خاض غمارها وهو في ريعان شبابه، فلم يخش مواجهتها صغيرا، فكيف يخشاها وقد أصبح عجوزا.

إن الشاعر من خلال هذه القصيدة ينتقد ضمنيا ظاهرة الهجرة إلى الخارج تحت ذريعة الهروب من شبح المأساة –التي ترسمها لنا معطيات الواقع احيانا– والبحث عن حياة كريمة، فهو يرفض ذلك رفضا قاطعا تحت أي ذريعة أو سبب، لأن الوطن محتاج أكثر من أي وقت مضى لرجاله المخلصين، وما اشادته بهذا العجوز المخلص في هذه القصيدة والثناء على بطولته واصراره، الا دعوة صريحة لعدم الخوف من الموت أو التهديد بالقتل، والهروب من شبحهما، وتحريض مباشر على الثورة والوقوف في وجه الموت وفي وجه فرق الرعب (او الخوارج مثلما سماهم) التي تكاد تأتي على ما تبقى من هذا الوطن، لأن حب الوطن يتطلب التضحية بالغالي والنفيس، فلا حب من دون تضحية واقتحام للصعاب والأهوال.

فالقصيدة إذن وثيقة ثورية تمردية ضد كل من يحاول اذلال هذا الوطن واخضاعه، بنشر صور الموت والدمار في كل مكان، ورسالة تحذيرية لهم، بأن هناك رجالا –صدقوا ما عاهدوا هذا الوطن عليه– سيقفون لهم الند للند وسيحاربونهم حتى أخر قطرة من دمهم، وسيفشلون كل خططهم ويفضحون مآمراتهم ومكائدهم، لأن طريق التقدم والتحضر والخروج من الأزمة يمر عبر الإخلاص للوطن، والتفاني في خدمته، والوفاء بالتزاماتنا اتجاهه، والتضحية بالغالي والنفيس في سبيله، وهي قيم وصفات ينبغي إن تكون أساس الميزان الذي نزن به أعمالنا، والمعيار الذي نحكم من خلاله على مكانة الأشخاص وقيمتهم.

وإذا كان الوفاء والإخلاص قيمة إنسانية إيجابية وسامية، فإن الخيانة والغدر فعل شنيع مرفوض في كل الديانات والقيم والاعراق الإنسانية، وهي في الحب ومع الحبيب أشنع وأقبح منها في شيء أخر، وتزداد مرارتها أكثر إذا جاءت هذه الخيانة في أوقات الضعف والعجز حيث تزداد حاجة الحبيب لحبيبه أكثر، من هنا يأتي تنديد الشاعر بها.

فالمجتمع الإنساني عامة، يعرف اليوم تراجعا مخيفا في مجال القيم المثالية والأخلاق الايجابية، التي تقوم عليها الأمم وتبنى بها الحضارات، وهذا ما يؤكد أن "البشرية تقف اليوم على حافة الهاوية بسبب إفلاسها في عالم القيم"18. ومن هنا يأتي تنديد العديد من الكتاب والشعراء

العرب بتسيّد مجموعة من قيم الضعف وأخلاق الهزيمة وسيطرتها على المجتمع، وهذا ما نلمسه في قصيدة " قلب بلا لون" التي أنتقد فيها الشاعر أخلاق الخيانة والخداع، حيث يقول:

لعنة الحب عليك!!
أي حادٍ ساقني بين يديك؟
بين فكيك أموت... في خفوت،
لحظة من بعد لحظة،
وأنا بعد أحنّ...
وحنيني سيجن!...
أنت يا من جئتني من عهد عاد!
جئت كي تمتص لوني...
ثم أغدو بعد هجرك،
شاحبا مثل الرماد،
أملأ الدنيا بذكرك!
أنت من علمني لذة أن أحيا لغيري...
فحملت الحب زادا وتجلدت،
تسلقت جبال الجود حتى
جاد قلبي بوجودي
حينما جاد قليل... بالقليل!19

إن شعر التمرد الاجتماعي يمتاز بأنه يحاول تسليط ضوئه الكاشف على المواطن الغائمة والضبابية في الظواهر الاجتماعية أو القيم التي يتعرض لها، أو ينتقد جوانب الجمود التي يضيق الإنسان بقيودها وهو في سيره نحو التجديد والتطور، وهذا ما يعني أن انتقاد الشاعر وتمرده على بعض القيم الإنسانية الخالدة كالحب مثلا هو في حقيقته انتقاد لطريقة توظيف وتناول هذه القيمة في المجتمع، وتمرد على الاستغلال السلبي لها، وهو ما نلمسه في هذه القصيدة التي يلعن فيها الشاعر ويذم الاستغلالية والخيانة في الحب، وهي صفات تتعارض مع طبيعة الحب الحقيقي، الذي يعلم المحب صفات التضحية، الجود، الوفاء، الايثار، اقتحام الاهوال.... وهي ثوابت وصفات ينبغي أن يتصف بها ويتبادلها طرفا الحب، وأي اخلال أو تراجع في الاتصاف بها من أي طرف؛ يعتبر إخلالا بميثاق الحب وإساءة إليه ونقضا لعهده،

وهو ما يدفع الطرف الآخر ثمنه ألما ودمعا وحسرة...، حيث يعبر عن ذلك الشاعر في بقية الأبيات:

فلماذا عندما ضقت بهذا الجود ذرعا
ولماذا بعدما فلّ عبيري وأتى عمر الذبول،
لم تعلمني النزول!...
قل بربي... أي ذنب كان ذنبي؟
ألأني اخترت عيناك سراجي
وسط هذا الغيهب الداجي
وروحي في متاهات من العجز تدور
أطبقت جفناك دوني؟!
ألأني اخترت أن أبني عشي تحت ظلك
ودموعي، بينما أذرفها، تمسح ظلي
ألهذا اخترت دوسي... والرحيل؟!...
أم تراني لست إلا جمرة من بين آلاف الجمار
تصطلي نارا ونور...
ثم تخبو... تحت أحضان القبور!20

إن ثورة الشاعر ورفضه لهذا السلوك المشين، جاء بسبب مرارة الخيانة التي تذوق طعمها، وهي مرارة تزداد كلما تذكر عظم تضحياته، وكثرة كرمه واستعداده للجود حتى بنفسه وحياته، في سبيل صون هذا الحب وحفظه واسعاد الحبيب، ليتفاجأ – بعدما خارت قواه ووهن عظمه- بالطريقة التي تم التخلي عنه بها، وكأنه مجرد جمرة حقيرة استغلها المحب وقت حاجته، ثم دفنها تحت الأرض بعد ذلك، وواصل سيره، فالشاعر يعترض على الخيانة لما تجيء بعد شدة الوفاء، ويرفض التهميش والتجاهل لما يكون بعد كثرة التضحية، ويلعن كل استغلالي وانتهازي لا يرى الحب إلا حيث تكون مصالحه وتتحقق مطامعه.

إن المجتمعات المتخلفة اليوم أصبحت تعج بهؤلاء الانتهازيين الخونة الذين يقدمون مصالحهم الشخصية على المصلحة العامة باسم الوطنية وباسم الديمقراطية وباسم الحب... فينالون التصفيق والثناء، وفي الجهة المقابلة لا ينال المخلص الوفي الذي بذل عمره وشبابه في خدمة وطنه أو حبيبه والزود عنه إلا التهميش والنسيان والتجاهل، بل الموت في صمت، وهو وضع

كفيل بجعل هؤلاء المخلصين وهم في ذروة غضبهم، يلعنون هذا الحب ويذمون هذا المحب الخائن، لذا فالقصيدة بهذا المعنى هي صرخة ألم وصوت أنين حبيب مخلص، يعاني الخيانة والتجاهل من حبيب أفنى عمره في خدمته وراحته، إنها صرخة ضد التوظيف المعكوس للمعايير الأخلاقية والاستخدام المقلوب للمقاييس القيمية، وفي ذلك يقول محمد جابر الانصاري "إن سلم قيمنا مقلوب رأسا على عقب، فالبطلان يعلو عندنا على الحقيقة والنفاق على الصدق، وطلب الحق على أداء الواجب والأخذ مهما يكن سبيله على العطاء على الغيرية، وشهوة التسلط على نزعة التعاون والتآلف، والنزوع إلى الحرية العشوائية على الانضباط بروح المسؤولية، وهذه كلها وجوه لواقع مرير هو واقع تحلفنا الخلقي"21. فتمرد الشاعر من هذا المنطلق تمرد مفهوم وإيجابي، كونه يحاول تفكيك وخلخلة منظومة القيم السلبية في المجتمع، التي تحتفي بالخائن والفاسد، في الوقت الذي لا ينال المخلص والوفي فيها سوى النسيان التجاهل وربما الذم والشتم، وهي بلا شك صفات وأخلاق تشترك فيها وتلتقي عندها أغلب المجتمعات المتخلفة.

خاتمة

إن من خلال ما سبق لنا ذكره يمكننا القول إن التمرد الاجتماعي عند الشاعر أحمد دليل لم يكن تمردا سلبيا هداما، بل كان إيجابيا بناء على بعض نواحي الخمول والسكون الي تعيق سير وتقدم المجتمعات، حيث حاول انتقاد مختلف قيم الجمود والتخلف ومهاجمة القلاع والحصون التي تمنعها وتحميها، مستخدما في ذلك بعض الحيل والتقنيات الفنية الجمالية، من خلال استدعائه لعدد من الشخصيات التراثية الفاعلة التي حاول من خلالها كشف فساد بعض الأعراف والتقاليد التي وصلت مرتبة القداسة، غير مبال بقوة وسلطة القوى التي تحميها ولا مكترثا لتهديدها ووعيدها، همه الوحيد خدمة مجتمعه والوقوف بجنبه عند أزمته ومرافقته في سيره نحو التطور من خلال أداء رسالته التي تحتم عليه فضح كل معيقات التطور وكشف عقباته، وهي بلا شك صفات للشاعر والأديب الملتزم.

الهوامش:

1 . حليم بركات، الاغتراب في الثقافة العربية –متاهات الانسان بين الحلم والواقع- مركز الدراسات والوحدة العربية، ط1، بيروت لبنان، 2002، ص 110-111.

2 . عمار بن زايد، النقد الأدبي الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990، ص 62.

3 . أحمد دليل، رجل من أرض الحلاج، دار الأوطان، ط1، الجزائر، 2014، ص 43- 44.

4 فيصل أحمد المتعب، النقد الاجتماعي في الشعر العربي الحداثي –الرؤية والابعاد- ماجستير، (غير منشورة) جامعة أم القرى، السعودية، 2003، ص 75.
5 . محمد الغزالي، الإسلام والطاقات المعطلة، نهضة مصر ، 2005، ص 49.
6 . مصطفى حجازي، التخلف الاجتماعي –مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور- المركز الثقافي، ط09، المغرب، 2005، ص 39.
7 . أحمد دليل، مرجع سابق، ص 45.
8 . كريم الشاذلي، الهزيمة، دار أجيال ، ط1، القاهرة مصر، 2014، ص 18.
9 . مصطفى حجازي، مرجع سابق ص 41.
10 . أحمد دليل، مرجع سابق، ص 31.
11 . المرجع نفسه، ص 31- 32.
12 . أحسن دواس، صورة المجتمع الصحراوي الجزائري –مقارنة سوسيو ثقافية- مذكرة ماجستير (غير منشورة)، جامعة منتوري قسنطينة، الجزائر، 2007- 2008، ص107.
13 . أحمد دليل، مرجع سابق، ص 56.
14 . المرجع نفسه، ص 57.
15 أمينة بو علامات، الاغتراب في الشعر الجزائري الحديث (1980- 1925) مذكرة ماجستير (غير منشورة)، جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان، 2010- 2011، ص 147
16 . أحمد دليل، مرجع سابق، ص 40.
17 المرجع نفسه، ص 41- 42.
18 مرشد القبي، الثورة في الفكر العربي المعاصر، المركز الثقافي العربي ، ط01، المغرب، 2014، ص 110.
19 أحمد دليل، مرجع سابق، ص 53 – 54.
20 . المرجع نفسه، ص 54، 55.
21 . فيصل أحمد المتعب، مرجع سابق، ص 141.